

اطوار اللغة العربية (*)

لم يأت الباحثون عن مبدأ اللغة في ادلتهم بما تطمئن اليه النفوس ويحل منها محل القطع او الظن القريب منه، على ان اختلافهم في تعيين الواضع هل هو الله تعالى او البشر مما لا ترتب عليه فائدة في العمل تقتضي العناية بترجيح احد المذهبين ومن ثم صحح المحققون ان ادخال هذه المسألة في علم الاصول من الفضول، وزعم بعضهم ان قلب الالفاظ التي يؤدي تغييرها الى فساد في احكام الشريعة ككسبية الثوب فرسا والفرس ثوباً يرجم حكمه الى اصل ذلك الخلاف فيمتنع القلب على القول بان اللغة كلها وقعت بتعليم من الله ويجوز على القول بانها وضعت باصطلاح البشر وليس هذا البناء بمستقيم فان مجرد اسناد الوضع الى الله تعالى وان ثبت بالحجة القاطعة لا يقتضي الوقوف عند حد ما ورد منه والاعساك عن تغييره باصطلاح جديد.

وأقصى ما ثبت في التاريخ ان هذه اللغة كانت في قبائل من ولد سام بن نوح عليه السلام وهم عاد وثمود وجرم الاولي ووار وغيرها وقد اقترضت اجيال هؤلاء الاقبيا متفرقين في القبائل ولا يصح شيء مما يروى عنهم من الشعر، وقد انكر العارفين على من كتب في السيرة اشعارا كثيرة ونسبها الى عاد وثمود، ثم انتقلت الى بني قحطان وكانوا يتكلمون باللسان الكلداني لسان اهل العراق الاصليين واول من اتصل لسانه الى العربية يعرب بن قحطان وبعد ان نشأت منها الحيرية لغة اهل اليمن انتقلت الى اولاد اسماعيل عليه السلام بالحجاز، ولم تكن لغة اسماعيل عربية بل كان عبرانيا على لسان ابيه ابراهيم عليه السلام، ثم انحدرت في شعوب العرب بمجاورتهم ومصاهرته لجرم الثانية حين نزل بحكمة فنطق بلسانهم وورثه عنه اولاده فأخذوا يصوغون الكلام بمضه من بعض ويضعون الامماء بحسب ما يحدث من

(*) بقلم الشيخ محمد الحضر بن الحسين من العلماء المدرسين بجامعة الزيتونة بتونس في مسامرتة « حياة اللغة العربية »

الماتى الى ان ظهرت اللغة في كامل حستها ويانها وصار لها شأن عظيم وتأثير يبلغ
وبذلك على عنايتهم بامر الفصاحة ما وصل اليها من نتائج افكارهم وبدائع
خطبهم وقصائدهم في سوق عكاظ وسوق مجنة اذ يندوت عليها في موسم الحج
ويقومون في عكاظ ثلاثين يوما وفي مجنة سبعة ايام يتناشدون ما وضعوه من الشعر
ويتناخرون بمجودة صناعة الكلام وعند احتفالهم يضر بون قبة الشاعر العظيم في
وقته ككتابة الدياني ويعرضون عليه متخبات اشعارهم ، وكان بعضهم يهدد بعضا
بنظم الهجاء وتسييره في ذينك الموضعين قال امية بن خلف يهدد حسان رضي الله عنه
ألا من مبلغ حسان عني مظنة تدب الي عكاظ

وقال حسان في جوابه

اتاني عن امية زور قول وما هو في المنيب بندي حفاظ
سأشر ان بقيت له كلاما ينشر في المجنة مع عكاظ

ومن شواهد هذا ان الحارث بن حنظله الإشكري كان شاعرا حكيما ولكنه ابتلي
بوضع (برص) ومن اجله كان عمرو بن هند ملك الحيرة يكره النظر اليه ويأبى ان
يستمع إلى خطابه الا من وراء ستار ، فدخل عليه يوما وانشد بين يديه قصيدته الممدودة
في المظلات

آذنتنا بينها اسماء رب نأو يمل منه الثواء

وتعرض فيها الى شيء من الصلح بين بكر وتغلب فبهرت عمرا برائم نظما
واستولت على له يسحر يانها فأخذته هزة وارتياح ولم يملك ان امر يرفع الستار
ما بينهما

واقضت حناية الضرب لذلك العهد بالأبداع في القول والتنافس في مقام الفصاحة
أن ظهرت معجزة الرسول صلى الله عليه وسلم في بلاغة ما انزل عليه من القرآن ، كما جاء
عيسى عليه السلام يبرئ الاكاه والابرص ويحيي الموتى باذن الله لما ارسل الى
قوم توفرت عندهم العناية بعلم الطب ، وكما بعث موسى عليه السلام الى امة اتهمى
السحر فيها الى غاية فاتهم في مقام المعجزة بابدع ما يكون في قلب الاعيان وإرامتها
في غير صورتها الاولى

ثم ارتقت اللغة في صدر الاسلام الى طورها الاعلى ودخلت في ام دور يحق علينا ان نسميه عصر شبابها فتمت عروقتها واثمرت غصونها بالوان مختلفة من الاساليب ومن مآثر هذه الحياة الراقية ان كان كلام الناشئين في الاسلام من العرب احلى نسقا واصنى دياجة من كلام الجاهلية في شعرهم وخطبهم ومحاوراتهم والاسباب التي ارتقت بها اللغة حتى بلغت اشدها واخذت زخرفها امور ثلاثة :
 احدها ما جاء به القرآن الحكيم من صورة النظم الديدع والتصرف في لسان العرب على وجه يملك العقول فانه جرى في أسلوبه على منهاج يخالف الاساليب المتأددة للنصحاء قاطبة وان لم يخرج عما تقتضيه قوانين اللغة واتفق كبراؤهم على اصابته في وضع كل كلمة وحرف موضعه اللائق به وان تفاضل الناس في الاحساس بلطف بيانه تفاضلهم بسلامة اللوق وجودة الترجمة

ومن النعاة من يحكم على بعض استعمالات يرد عليها القرآن بعدم القياس عليها كما قصروا حذف حرف المصدر ورفع المضارع بعده على السماع بعد ان اوردوا في مثاله قوله تعالى «ومن آياته يريكم البرق خوفا وطمعا» الآية . ولا أدري كيف يتفق لهم هذا مع علمهم بأنه صاحب البلاغة التي ليس وراءها مطلع ، وانا لنعلم قولهم في أصول العربية أن ما قل في السماع ان كان مقبولا في القياس صح القياس عليه وان وجد ما يارضه في القياس يوقف على السماع فنسلم لهم اجراء هذه القاعدة في كلام العرب لاحتمال ان تزيع السنهم عن القصد فيحرفون الكلمة عن اصل استعمالها غلطا ولا نسلم لهم تحكيها في كتاب الله الذي أخرس بفصاحته لسان كل منطبق

ثانيا ما تنجر في اقوال الرسول صلى الله عليه وسلم من ينابيع الفصاحة وما جاء في حديثه من الرقة والمثانة والابانة عن الغرض بدون تكلف: روي ابن ابا بكر الصديق رضي الله عنه قال لقد طفت في احياء العرب فما رأيت احدا أفصح منك يا رسول الله قال « وما يعني وانا قرشي وارضعت في بني سعد وبنو سعد أفصح قبيلة في العرب بعد قريش »

واتما اغضى علماء اللسان النظر عن الاستشهاد بالحديث لان رواته لم يجمعوا عنائهم على ضبط الفاظه كما كانوا يتثبتون في قلبه على المعنى ولو تحقق أهل العربية

من رواية حديث بلفظه كالأحاديث المنقولة للاستشهاد على فصاحته صلى الله عليه وسلم لاستفدوا اليه في وضع احكامها يقينا

ثالثها ما وافقه الاسلام على عقولهم بواسطة القرآن والحديث من العلوم السامية وبما نتج عن تعارف الشعوب والقبايلي والتمام بعضها ببعض من الافكار ومطلوحة الآراء ومعلوم ان اتساع العقول وامتلاءها بالمعارف مما يرقى مداركها ويزيد في تهذيب المعية فتذف بالمعاني المتكررة وتبرزها في اساليب مستحدثة فان ثرة المعاني ودقتها تبعث على التفتن في العبارة والتأنيق في سياحتها ويوضح لكم هذا ان اللغويين في الحواضر نجدهم في الغالب اوسع فاية في اجتلاب المعاني الفاتحة واهدى الى العبارات الحسنة ممن يعادلم في جودة القريحة وفصاحة المنطق بغيره لاشتغال المدن على معان شتى يتزعم الذهن منها هيات غريبة لا طريق لتصورها الا المشاهدة

ولما فارقت العرب الحجاز لا بلاغ دعوة الاسلام وبث تعاليمه بين الامم اقتضت مخالفتهم لمن يحسن لغتهم ضعف ملكاتها على السنتهم ودخول التغير عليها في مبانيها واساليبها وحركات اعرابها وابتداء التحريف يسري الى اللغة في عهد الخليفة الرابع علي بن ابي طالب رضي الله عنه فاشار على ابي الاسود الدؤلي بوضع علم النحو ولم يزل ائمة العربية يحوطونها باستنباط القواعد حتى ضربوا عليها بسياج قبيها عادية الفساد ويجول بينها وبين خوائل الضياع والاضمحلال وحين انتشرت المخالطة وتفشي داء اللحن امسك العلماء عن الاستشهاد بكلام معاصريهم من العرب ويعنون اول المحدثين الذين لا يستشهدوا بقولهم بشار بن برد المتوفى سنة ١٦٧ واحتج سيبويه بشيء من شعر بشار بدون اعتماد عليه وانما اراد مصانته وكف اذايته حيث هجاه لتركه الاحتجاج بشعره كما استشهد ابو علي الفارسي في كتاب الايضاح بقول ابي تمام من كان مرعى عزمه وهمومه ووض الاماني لم يزل مهزولا

وليس من عادتهم الاستشهاد بشعر ابي تمام لان عهد الدولة كان يعجب بهذا البيت وينشده كثيرا

واستشهد صاحب الكشاف عند قوله تعالى (واذا اظلم عليهم قاموا) بيت

من شعر ابي تمام وقال وهو وان كان محدثا لا يستشهد بشعره في اللغة فهو من

علماء العربية فاجعل ما يقوله بمنزلة ما يرويه . فيؤخذ من صريحه انه يرى صحة الاحتجاج بكلام المحدث اذا كان من أمة اللغة وليس مذهبه هذا بسديد وقياس ما يقوله ابو تمام على ما يرويه غير صحيح فان التكلم بالعربية الصحيحة لههه ابي تمام ناشي . عن ملكة تستفاد من تعلم صناعتها ومدارسة قوائنها فقل فرض ان لا تفوته معرفة بعضها قد يذهل عن ملاحظة تلك القوائن فلا يامن ان يزل به لسانه في خطأ مبين . واهو تمام نفسه صدرت عنه آيات كثيرة خرج فيها عن مقياس العربية قال ابن الاثير لم اجد احداً من الشعراء المقتبين سلم من الغلط فاما ان يكون لحن لحناً يذل على جهله ، وواقم الاعراب واما ان يكون اخطأ في تصريف الكلمة ولا اعني بالشعراء من هدم زمانه كالمتني ومن كان قبله كالبحثري ومن تقدمه كأبي تمام ومن سبقه كأبي نواس

اما العربي القح فإنه يطلق العبارة بدون كلفة في اختيار الفاظها او ترتيب بعضها فقع صحيفة في مبانيها مستقيمة في اعرابها ولا يكاد يلحن في اعراب كلمة او يزيلها عن موضعها اذا ترك لسانه وسجيته ومن ثم كان قرض الشعر كالخطابة على الارتجال والبديهة شائعا عند العرب نادرا في عصر المولدين ، ولا يمترض هذا بان كثيرا من العرب يطيل المدة في عمل القصيدة كما فعل زهير في حولياته لأنه يستوفيا في امد قريب ويتمها على شرط الصحة ولكنه لا يخرجها للناس اذا فرغ من عملها الا بعد التروي واعادة النظر في تهويم معانيها وحسن النسق في بنائها وإحكام قوافيها لا يخلصها من اللحن ويطبق عليها اصول العربية كما هو شأن المحدثين ثم نشأ بهذا التحريف الذي طرأ على اللغة مرض آخر انجر اليها بسبب من اسباب حسنها هو ان مسلم بن الوليد واما تمام امضا النظر في اشعار القصاص وخطبهم وحسروا اللثام عن وجه بيانها فابصروا فيها محاسن من فنون البديع كالمستعارة والجناس والتورية فشفغوا بها وثابروا على ارادها في منظوماتهم توفيرا لحسنها واستزادة من التأتق فيها فكان الناس يقولون ان اول من افسد الشعر مسلم بن الوليد وسمع اعرابي قصيدة ابي تمام التي يقول في طالها :

« طال الجميع اراك غير حميد »

فقال ان في هذه القصيدة اشياء افهمها واشياء لا افهمها فاما ان يكون قائمها اشعر من جميع الناس واما ان يكون جميع الناس اشعر منه . وما تعاضى فهمها على الاعرابي الا لكونه سمع شعرا حشي بوجوه من البديع خرجت به عن الاسلوب المألوف فقل تأليفه وبعد عن الافهام تناوله

واتبع طريقهما كثيرا من الادباء وربما انتهى بهم الاعجاب بمعاصر البديع الى مخالفة قانون العربية وتغيير بنية الكلمة من اجلها كقول بعضهم

انظر الي بعين مولى لم يزل يولي الندى وتلاف قبل تلاف

فكانه زاد في مصدر تلاف الفايتم له الجنس مع قوله تلاف ولا تعرف في كتب اللغة من ذكر التلاف مصدرا لتلف وانما يوردون في مصدره التلاف بدون الف

ولم تقف سيدة الا كثار من البديع عند حد الشعر بل تعدى وباؤها الى النثر ايضا فطفق كثير من الكتاب يعللون رسائلهم بوجوه التحسين: الاستعارة والجناس ونحوها، واجتهدوا ان لا يفوتهم الشعراء بواحد منها حتى اذا ما تلبت صحيفة من هذا التهيل والتبث فيها نظرك لطوف عليها بالمطالعة ادركته عند كل فقرة حبة والتوت امامه طرق فهمها وان كانت معاني مفرداتها جلية فتعس به كيف ينتقل من كلمة الى اخرى بخطوات ضيقة كأنها حمل على قيد من حديد، وأ كثر هؤلاء يهلون النظر الى جانب المعنى والمحافظة عن اقامته واستيفائه وهذا ما بحث الشيخ عبد القاهر الجرجاني حين قام بنادي باسبغ عبارة ان الالفاظ خدم للمعاني وان المعاني مالكة سياسة الالفاظ ، وأقام الحجة في كتابه دلائل الاعجاز واسرار البلاغة (٥) على ان مزية الفصاحة انما استحققتها الالفاظ ووصفت بها من جهة معانيها وازال كل شبهة عرضت لمن اعتقد انها مزية استحقها اللفظ بنفسه

وادرك غالب المحررين اليوم ان تتبع هذه الحسنت ومواصلة العمل بها في نظم الكلام يبدلها سينات تسمى منها قلوب الذين يستمعون القول فيتعجبون

(٥) يباع كل واحد منهما بمئتين قرشا صحيحا بإدارة النار واجرة البريد ثلاثة

احسنه يانا فاقلمرا عن الاكثر منها لاسبا في خطابات الجمهور وزهدوا فيها الاما
سمح به الخاطر عنوا ورمته الطبيعة بدون كلفة ظاهرة
وكانت اللغة في خلال الاعصر الماضية تعلو وتضنف وتتشر في انحاء المصورة
على حسب كرم الدولة وعناية رجالها بالفنون الادبية فارتفع ذكرها حين كان الامير
سيف الدولة يباحث ابا علي الفارسي في غوامض علم النحو وينقد شعر ابي الطيب
المنيني بدوق لطيف ويجازيه وغيره من الشعراء بخير حساب
وارقى شأنها يوم قام القاضي منذر بن سعيد في مجلس الملك الناصر لدين الله
عند احتفاله برسول ملك الروم في قصر قرطبة وشرع بخطب من حيث وقف ابو
علي البندادي واتطع به القول فوصل منذر افتتاح ابي علي بكلام عجيب واطال
النفس في خطبة مرتجلة فخرج الناس يتحدثون بديته المعجزة وارتواء لسانه من
اللغة النضحي ولا مرية في ان كرم الدولة باعث على ارتقاء حال اللغة عند من التفت
الى التاريخ واقام الوزن بين الشعراء الناشئين في زمن اجواد العرب وملوك آل جفنة
وملوك ظلم كزهير والناينة وبين من تقدمهم من الشعراء

باب الانتقاد على المنار

﴿ السائل والمسئول - كلمة مولى ﴾

بسم الله الرحمن الرحيم

الى حضرة الشيخ المكرم ناصر السنة وقامع البدعة العالم العامل السيد محمد رشيد
رضا المحترم ادام الله بقاءه آمين

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد فقد قرأت في المنار الاغر لازلالت واياته
منشورة ، واياته ظاهرة منصوره في (ص ٨١٤ جزء ١١ من المجلد ١٢) سو الاورد